

الحلقة الثالثة والثلاثون

سفر الجامعة

برنامج أنوار كاشفة

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. بدأنا قبل عدة لقاءات بدراسة سفر الجامعة لسليمان الحكيم، والذي يُعتبر من أسفار الحكمة. وقد عالج هذا السفر معضلة مشاعر الإحباط واليأس عند الإنسان، حيث أكد أن كل شيء بعيد عن الله هو باطل وقبض الريح.

ختم سليمان الحكيم في اللقاء الماضي الحديث عن مشورته العملية. فتكلم عن الباطل الموجود في الحياة، إذ وجد أن الصديقين يستحقون أحياناً جزء الأشرار، بينما الأشرار يحظون بما كان يجب أن يناله الصديقون. ودعا الإنسان لكي يفرح في مدة أيام تعبته التي أعطاها إياها الله.

صديقي المستمع، هل بإمكان أي إنسان معرفة أسرار الكون وإدراك سر الخليفة؟ قال أحدهم: أنه لو أتيت لشخص ما كل حكمة العالم، فهناك على الدوام أسئلة كثيرة في الحياة لا تجد إجابات، وتبقى بالتالي أمور كثيرة تجهلها. وهذا ما اختبره سليمان الحكيم فكتب قائلاً: « وعندما جعلت قلبي يعزم على معرفة الحكمة، والتأمل في معاناة الإنسان التي يقاسيها على الأرض، وكيف لا تذوق عيناه النوم ليلاً ونهاراً، رأيت أعمال الله كلها، وعجز الإنسان عن إدراك الأعمال التي تم إنجازها تحت الشمس. ومهما جدّ في سعيه لمعرفة فلن يدركها. وحتى إن ادّعى الحكيم معرفتها فإنه حقاً لن يستطيع أن يجدها» (الجامعة ٨: ١٦-١٧).

لقد تحدّث سليمان الحكيم عن معاناة الإنسان الكبيرة وهو محق بذلك. فالإنسان يولد في الأوجاع، وينمو بالأتعاب والمشقات، ولا يعرف الراحة الحقّة، وتصيبه الأمراض، ويواجه الأزمات الكثيرة في حياته. وربما ينجح أخيراً ويحقق مبتغاه، أو على العكس يعيش فقيراً معدماً. وتساءل الحكيم عن حكمة الله من وراء خلقه هذا الكون العظيم الباهر. واكتشف عجز الإنسان عن إدراك أسرار أعمال الله، ومهما بذل الجهد لمعرفة فلن يدركها. وحتى إن ادّعى أحد الحكماء إدراكها، فإنه حقاً لن يجدها.

أليس هذا هو اختبار كل حكماء العالم مستمعي؟ فإنه حتى بعد مضي حوالي ثلاثة آلاف سنة على قول سليمان الحكيم هذا، نجدهم عاجزين عن معرفة الكثير والكثير من أسرار الكون والحياة. ولا يستطيع أحد منهم الإدعاء أنه توصل إلى معرفة الحكمة المطلقة. ومع الأسف ونتيجة لذلك، فلقد توجه بعض الحكماء نحو الفلسفة البشرية المادية، ظناً منهم أنها هي الجواب النهائي لتساؤلاتهم، فضاغوا في متاهات كثيرة. لكنهم عادوا واكتشفوا خطأ استنتاجاتهم، فوقعوا في الحيرة واليأس.

لعلّ السؤال الآن: هل أعلن الله لنا ولو قيساً من حكمته ليساعدنا على إدراك بعض أسرار الخلق؟ كتب الرسول بولس من رسل المسيحية الأوائل عن هذا الموضوع قائلاً: « لكننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يُبطلون. لكننا نتكلم بحكمة الله في سرّ. الحكمة المكتومة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا. التي لم يعلمها أحدٌ من عظماء هذا الدهر. لأن لو عرفوا لما صلبوا ربّ المجد. بل كما هو مكتوب: ما لم ترَ عينٌ ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال إنسان ما أعدّه الله للذين يحبونه، فأعلنه الله لنا نحن بروحه» (١كورنثوس ٢: ٦-١٠).

تحدّث هنا الرسول بولس عن حكمة الله التي ليست من هذا العالم، والتي لم يدركها فلاسفة وحكماء هذا العالم. هذه الحكمة التي كانت مكتومة أي مخفية منذ قبل خلق العالم، ولهذا قال عنها أنها كانت سرّاً. وكشف أن أولئك الحكماء لو عرفوا حكمة الله هذه، لما صلبوا ربّ المجد، أي المخلص يسوع المسيح. وأضاف قائلاً: إن حكمة الله هذه، لم ترها عين، ولم تسمع بها أذن، ولم تخطر على فكر أي إنسان. أي هي حكمة لا يمكن للإنسان إدراكها بحواسه، أو حتى معرفتها من خلال الحكمة البشرية. لكن العجيب أن حكمة الله هذه كان هدفها الإنسان الذي أحبّه الله، وأراد إنقاذه.

مستمعي الكريم، من الملاحظ أن الرسول بولس ربط في تلك الآيات المقدّسة بين حكمة الله من جهة، وصلب المخلص المسيح، ومحبة الله لنا نحن البشر الخاطئة، من جهة أخرى. فما هي العلاقة يا ترى بين حكمة الله وصلب المخلص المسيح ومحبة الله؟

قد يستغرب الكثيرون عندما نقول إن حكمة الله العجيبة قد تجلّت في صليب المسيح. ويتساءلون: أين الحكمة من صلب المسيح؟ إنه سؤال منطقي. وللجواب نقول: إن الله أراد خلق الإنسان بإرادة حرّة، لكي يتعبّد له ويمجّده، ويكون له شركة معه. لكن الله علم في نفس الوقت أن الإنسان سيقع في العصيان. وعندها دبّر الله ولمحبته لهذا الإنسان الذي خلقه، وسيلة لإنقاذه. ولم تكن هذه الوسيلة إلا أن ينتازل الله نفسه من خلال كلمته الأزلي المتجسّد الذي هو المخلص المسيح، ويقدم جسده كفّارة من أجل خطية الجنس البشري. وهكذا صار بإمكان الإنسان الذي يؤمن، أن ينال خلاص الله، ويعود إلى الشركة معه.

هذه هي حكمة الله العجيبة التي كانت مكتومة منذ الأزل. الحكمة التي تفسّر لنا لماذا خلق الله البشر، وتعالج مشكلة شقاء الإنسان وعذابه. ويشير الرسول بولس أن حكمة الله هذه لم يستطع أن يعرفها إلا الذين اختبروا خلاص المسيح، وأدركوا محبة الله، وذلك من خلال روح الله القدوس. هل حكمة الله مستمعي ما زالت غير مفهومة بالنسبة إليك؟ وهل ما زلت تستهزئ بحكمة

الصليب هذه، وتتنظر إليها أنها جهالة وتُظهر ضعف الله؟ كما يظن الكثيرون. وهو الذي أشار إليه الرسول بولس في آيات أخرى. لكنه عاد ليؤكد: « أن جهالة الله أحكم من الناس. وضعف الله أقوى من الناس » (١كورنثوس ١: ٢٥).

هل تعلم مستمعي أنك تستطيع أن تدرك حكمة الله هذه عن طريق الإيمان بموت المسيح الكفاري على الصليب من أجلك؟ وعندها تدرك قصد الله من خلقه للإنسان، وتستطيع الحصول على خلاص الله الكامل وغفرانه وبركاته المجيدة.